الانقلاب الثقافي والسياسي

الصحّ والخطأ في المواقف الجديدة

. منير شفيق * .

نتفهّم!

يستطيع المرءُ أن يتفهَّم ما حدث من انقلاب في مواقف النخب اليسارية، عمومًا، في تقويم التجربة الماضية.

- فنظام دكتاتورية البروليتاريا أثبتَ فشلَه وتهاوى في معقله الأول، الاتحادِ السوفياتي.

- وتغيَّر الموقفُ منه جذريًا في قلعته الثانية، الصين.

- ولم يكن حالُ التجارب التي اعتَمَدتْ نظامَ الحزب الواحد، أو أعطت الدولةَ سلطاتٍ استثنائيةً في الاقتصاد والتنمية، كما في السياسة والثقافة، مختلفًا من حيث نتائجه وتقويمه.

ويُمْكن المرءَ أن يتفهّم ذلك الانقلابَ في اعتبار الديموقراطية الدواءَ الشافي لكلّ ما تَشْكو منه مجتمعاتُنا من تخلّفٍ وسلبياتٍ وانتهاكاتٍ لحقوق الإنسان والحريات السياسية، وغيرُ ذلك كثير. ثم قد يتفهّم التخلّي عن «أوهام المجتمع الفاضل،» بمختلف تسمياته، للالتصاق أكثر بالواقع والممكن.

ولكنْ...

لكنّ ثمة وجهًا آخرَ للصورة، أكان في تجربة الماضي أم الحاضر، لا يُمْكن فهمُ الانقلاب عليه بالموازاةِ مع الانقلابات أعلاه. وهو، أولاً، تقويمُ الدور الذي لعبه الاستعمارُ القديمُ والإمبرياليةُ الأميركية في حياة الشعوب أو في نهب ثرواتها وفرض التبعية عليها، بل وتقسيم بلدانها وتركِ ما لا يُحصى من المشاكلَ الحدودية في ما بين دولها.

فكيف يُمْكن أن يصبح الموقفُ السابقُ من إبادة الهنود الحمر في الأميركيتين، أو من استعباد الأفارقة وتحويلهم إلى رقيق في العالم الجديد، أو من التمييز العنصري، خاطئًا؟

وكيف يُمْكن أن يغدو الموقفُ من حروب الاستعمار والسيطرة على الشعوب، وما صحب ذلك من إباداتٍ وكوارثَ وتدميرٍ لحضارات وثقافات ومن نهبٍ للثروات، خاطئًا أو قابلاً للمراجعة؟!

والسؤال يصبح أكثرَ وجاهةً وقوةً عندما يُفتحُ ملفُّ الاجتياح الاستعماري - الصهيوني لفلسطين وتشريدُ أكثرية أهلها واغتصابِ أغلبية أرضها ومدنها وقراها وإقامة دولة إسرائيل، وما قُدِّم لها من دعم أميركي بعد ذلك لتكريسها في موقع المهيمِن عسكريًا على الدول العربية مجتمعةً، وما تبع ذلك من توسيع واحتلالات وضربٍ للنهوض القومي التحرري الذي مثّلته الناصريةُ.

فكيف يصبح الموقفُ من كل هذا خاطئًا ويوضَعُ تحت المراجعة، ليس من زاوية الأخطاء في إدارة الصراع، وإنّما من زاوية **جوهر** الموقف الأساسي وصحّته؟

ثم كيف يمكن أن تُجرى مراجعةٌ لاستراتيجية المشروع الإسرائيلي، والمحوَّل إلى استراتيجية أميركية أيضًا، تحت مقولات «الاعتراف بالآخر» و«الانفتاح» و«العقلانية» وما شابَهَ؟

وبكلمة، إنّ انقلاب الموقف هنا يمثّل صِدامًا مع حقائق لا يُمْكن دحضُها لا علميًا ومعرفيًا، ولا مبدئيًا وأخلاقيًا، ولا واقعيًا أو تقديرًا لمصلحة عليا أو احتسابًا صحيحًا لمستقبل شعوبنا.

فإذا كانت المواقف السابقة على خطإٍ في فهمها للاشتراكية والعدالة الاجتماعية، أو التجربة السوفياتية والشيوعية، أو تجربة دول الاستقلال، أو حتى تجربة الاشتراكية الأوروبية (الأممية الثانية)، أو في دفاعها عن الدكتاتورية أو الشمولية، أو في سكوتها عن قضايا تمسّ الحريةَ وحقوقَ الإنسان... فإنّها لم تكن على خطإٍ في موقفها من الاستعمار القديم، أو الإمبريالية، أو من الصهيونية في فلسطين وفي العالم، أو من الرأسمالية العالمية المتوحّشة، أو ممّا كان يسودُ وما يزال من نظام عالمي ظالم في السياسة والتجارة والاقتصاد والثقافة واحتكار التقدّم الصناعي والعلمي

---

* - كاتب فلسطيني.

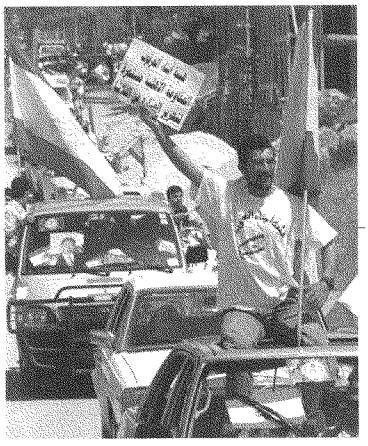

الذين قالوا بـ «نهاية التاريخ فوجئوا حين رأوا الجيش الإسرائيلي ينسحب مكسوراً في جنوب لبنان

والتكنولوجي وفُرَص التخلّف (لا يغيِّر من هذه الحقيقة بعضُ الاختراقات).

كما أنّ المواقف السابقة لم تكن على خطإٍ من حيث المبدأ في انحيازها إلى الفقراء والعدالة الاجتماعية وحريةِ الشعوب وسيادتها واستقلالها والسعي إلى إقامة نظام عالمي أكثر عدالةً وديموقراطيةً ويحترم حضارات الشعوب وهوياتها وثقافاتها وخياراتها الحرّةَ بعيدًا عن معادلة «الهيمنة التبعية» أو «المركز والأطراف.» ناهيك عن صحة الموقف من سباق التسلّح المجنون ووضع العالم على حافة الدمار، بعد أن زُرعتْ تحتَه أسلحةٌ فوق تقليدية تكفي لإبادته عشراتِ المرات.

هذا، وأُضيفَ اليومَ إلى كل ذلك سببٌ آخرُ لا يقلّ وجاهةً عن كلّ ما تقدّم، ألا وهو قضايا البيئة والانحباس الحراري واستهلاك الطبيعة الذي تعدّى الخطوطَ الحمرَ للاحتمال والتجدّد. أما أصابع الاتّهام في تحمّل المسؤولية الأولى عن كل هذه الإشكاليات فقد بقيتْ موجَّهةً في الاتجاه نفسه، حيث الاستعمارُ والإمبرياليةُ وقوى الهيمنة في النظام العالمي السائد. فالرأسمالية المتوحّشة لم تَعُدْ خطرًا على شعوب العالم الثالث ولا على الطبقات العاملة في بلدانها أو على التقدّم الإنساني فحسب، وإنّما أصبحتْ أشدَّ خطرًا على الكرة الأرضية، بمصادرها وهوائها، بما في ذلك على البشر والحياة بمختلف تلاوينها.

مراجعة الأشكال... لا الجوهر

وعليه، فإنّ كل ما شُنَّ النضالُ ضدّه كان صحيحًا من حيث الأساس والجوهر، وإنْ وَجبت المراجعةُ في **أشكال** هذا النضال لا من ناحية الانحياز إلى المظلومين والفقراء والشعوب المضطهَدة والعدالة الاجتماعية والإنصاف العالمي، ولا من ناحية الانحياز إلى الطبيعة والبيئة والوجود الإنساني. فالتخلّي عن هذيْن الانحيازيْن وما يَصْحبه من بلادةِ ضمير يشكّل كارثةً أخلاقيةً بالنسبة إلى الفرد.

ولهذا أخطأ الذين خَلَطوا ما كان صحيحًا وعادلاً وحقًا في نضالهم، بما كان وهمًا أو خللاً في ما كانوا يؤيِّدون أو يريدون الوصولَ إليه. وهذا ما قاد بعضَهم إلى الانتقال إلى الجانب الآخر من الجبهة ـ وهو ما يقتضي في ذاته ضرورةَ التصدّي له والنضال ضدّه، لا كما كان في السابق فحسب، وإنّما بصورة أفضل وأكثر جدةً وإبداعًا أيضًا. فالتاريخ لا ينتهي بانتهاء أحلام هؤلاء البعض، أو بانتهاء المعسكر الاشتراكي أو دول تجربة الاستقلال. ذلك لأنّ أسباب الصراع والتدافع التي وَلّدتْ تلك التجاربَ بنجاحاتها وإخفاقاتها ما زالت قائمة، بل أشدّ مما كانت عليه في السابق. وقد أُضيف إليها ـ كما ذكرنا ـ الخطرُ على الوجود الإنساني، لا بسبب الأسلحة فوق التقليدية فحسب وإنّما أيضًا، وبصورة أشدّ إلحاحًا، بسبب ما يَرْتكبه النظامُ الرأسمالي العالمي، لاسيّما في عهد العولمة، من جرائم بحقّ الأرض والبيئة، عناصرِ ومناخًا وتجدُّدًا.

ولهذا فإنّ الذين قالوا بنهاية التاريخ كما قالها فوكاياما، أو كما قالوها هُمْ حين وقفوا ضدّ كلّ ما كانوا عليه بلا تمييزٍ بين ما كان خاطئًا وما كان صحيحًا ولم يزل، منحازين إلى الجانب الآخر من الجبهة، أقول إنّ هؤلاء فوجئوا حين رأوا الجيشَ الإسرائيلي ينسحب مكسورًا من جنوب لبنان، أو وهم يَرَوْن أطفالَ فلسطين وشبابَها وفتياتِها ينتفضون ويقاومون أكثر من أربع سنواتٍ متواصلة، أو يَشْهدون التظاهراتِ المليونية في العواصم الأوروبية والعالمية ضدّ العدوان على العراق، أو الحركات الجديدةَ المناهضةَ للعولمة والمدافعة عن البيئة، أو نتائجَ الانتخابات المنحازة إلى الفقراء في عدد من بلدان أميركا اللاتينية (تغطّي ثلاثةَ أرباع سكّانها)، أو ما يَشْهده العالمُ الإسلامي من نموٍّ للحركات المعتدلة ومن صحوةٍ شبابية وروحٍ جهاديةٍ ضدّ الاحتلال (ودعك من ظاهرةِ التطرّفِ والمغالاةِ والإرهاب ـ

كلّ ما شَنَ النضال ضده
كان صحيحاً من حيث الجوهر،
وإن وجبتْ مراجعةُ أشكاله

فهي متخبّطةٌ ومعزولةٌ وآفلةٌ وغيرُ قابلةٍ للاستمرار).

أما من الجهة الأخرى فلا بدّ لهم من أن يتفاجأوا أيضًا وهم يروْن اتساعَ وتفاقُمَ التناقضات ما بين الدول الكبرى، وما راحت تعانيه الولاياتُ المتحدة والدولةُ الإسرائيلية من عزلةٍ دوليةٍ لاسيّما من جانب الرأي العامّ الغربي نفسه. ولعلّ إمساك القوى الأكثر تطرّفًا وعدوانيةً بخناق الولايات المتحدة الأميركية لَيشكّلُ دليلاً على أنّ الرأسمالية الأميركية الأشدَّ توحُّشًا في مرحلة العولمة لجأتْ إلى القوى الأكثر عسكريةً وفاشيةً وصهيونيةً لضبط إفلات العالم من بين يديها بعد أن حَسبتْ أن أصبح طوْعَ بنانها معلنةً «نهايةَ التاريخ.»

على أنّ التاريخ فتَحَ صفحةً جديدة بعد انتهاء الحرب الباردة وعالمها، كُتبتْ سطورُها الأولى على غيرِ ما تشتهي الرأسماليةُ الأميركية المتوحّشة. فجاء المحافظون الجدد لإنقاذ موقفٍ غيرِ قابل للإنقاذ. وهذا يفسِّر لماذا عادوا، في ولاية بوش الثانية، يَخْطبون ودَّ «أوروبا القديمة،» ويبعثون الحياةَ في حلف الناتو. وهذا كلّه يشكّل شهادةً على فشل الاستراتيجية السابقة أو محاولة لتعديلها عبثًا. لكنّها شهادةٌ على أنّ نضالات المرحلة السابقة لم تكن كلُّها خاطئةً، ولا رمي أعلام الكفاح ضدّ الهيمنة الأميركية عالميًا وضدّ مشروعها الصهيوني في بلادنا يُمْكن أن يسوَّغ أو يدافَع عنه... ولو خلَط نفسَه بالديموقراطية والليبرالية والحداثة!

عمّان

سيرة تحوُّلات مدينة بيروت بعد خروج الاحتلال المصري سنة ١٨٤٠.

ماذا يجري لعائلة عبد الجواد أحمد البارودي؟ ماذا تصنع الأعوام بصاحب الذراع الواحدة وبأبنائه الثلاثة وبناته السبع وزوجاته؟

سيرة عائلة مندثرة وسيرة مدينة غريبة الحظوظ. ماذا تكون بيروت؟ ملاذ نازحين ولاجئين، أم برجَ بابل على حافة البحر، أم جنّة عساكر، أم سدوم وعمورة؟ وماذا يُخفي المستقبل؟

الجزء الثاني من الملحمة.